ليشبع حاجة مجتمع معين وطبقة معينة مكرسة لحياة آلية تسعى الى الهرب منها . الوجود الروائي متشابك ابدا مع الوجود الاجتماعي . واذا كان القرن التاسع عشر قد عرف ازدهار الرواية النفسية وولادة الرواية البوليسية ، فاننا لم نشهد عصرا عرف مثل هذا الركام من الانتاج الروائي البوليسي التجسسي الخيالي كعصرنا بالرغم من نشوب الحروب التي شهدها القرن السابق ، وحدوث الانهيارات الاقتصادية . ربما لان السياسة يومها لم تكن بحاجة الى خلق انواع روائية متخصصة بالرد المباشر او غير المباشر على هذا التيار او ذاك ، بالرغم من ان روايات القرن التاسع عشر كانت أيضا غير بريئة سياسيا .

في فترة الحرب الباردة انتج الغرب بطلا شعبيا أطلق عليه أسم « جيمس بوند » وجسد فيه خوفه من المعسكر الاشتراكي ، ومجد عبره تفوق المجتمع الرأسمالي ، وفساد المجتمعات المالية ، وحضارة المدن التي شبت بسرعة ، وسيطرة الجنس وهوس العنف . كان جيمس بوند وريث أرسين لوبين الذي مثل قبله الصراع بين الديمقراطية والعدالة .

وبحكم هذا الارتباط الوثيق بين الرواية والمجتمع فاننا سنركز عليه في دراستنا لرواياتنا التي تحدثنا عنها . وكما يقول لينهارت « ان السمة التاريخية الاجتماعية لاشكال اللغة واضحة الى درجة لا يمكن لاجتماعيتها ان تغيب عنا . انها ليست جزأ منفصلا من كل يمكن تسميته بتاريخ الاشكال بقدر ما هي جزء من كل يمكن تسميته بتاريخ الايديولوجيات التي تفرزها المجتمعات ، والتي تعكس تناقضات الفرد في التاريخ وتناقضات التاريخ في الفرد » .

ان الروايات التي بين ايدينا هي جزء من تاريخ ايديولوجي ، بل هي بحد ذاتها واقع تاريخي اجتماعي . لذلك ليس من الغريب ان تبدو طبيعية لابناء الايديولوجية التي تضفي عليها شرعيتها كما تعطي للسلطة شرعيتها . وليس من الغريب كذلك ان تواكب هذه النصوص تغير بنية السوق ، وتتحول الى سلعة تخضع لقانون العرض والطلب ، وبالتالي لمراحل الانتاج والتوزيع والاستهلاك الرأسمالي . ولقد عبر هربرت غانز عن العلاقة الوثيقة للانتاج الثقافي في البلدان الرأسمالية مع التجارة بقوله « ان بعض الشخصيات الحكومية الاميركية تحاول توجيه دور النشر لحساب هذا التيار السياسي او ذلك ، وبالتالي فان الموزعين سياسيون ثقافيون ، وان الجمهور ليس الا الناخب الثقافي » . اما ليو بوغارت فقد كشف عن أرتباط الجريمة السياسية بالجريمة في وسائل الاعلام ، حين ذكر ان لجنة رئاسية قامت ، بعد مقتل كينيدي ، بتحقيق اثبتت فيه ان الفترة التي أغتيل فيها كينيدي كانت الفترة التي روجت فيها وسائل الاعلام لأفلام الاغتيالات السياسية وقصصها . ان الجريمة السياسية في نظر بوغارت نفسه تدفع الى تسويق اكبر لروايات العنف ، او ان روايات العنف هي التي تدفع الى الجريمة السياسية ، وتمنحها شتى التقنيات الخيالية للوصول اليها .

غير اننا لن نصنف الروايات التي بين أيدينا تصنيفها التقليدي ، ولن ندخل في أدبياتها او جمالياتها او مواقعها اللغوية لان أي تحليل من هذا النوع سيطمس بعدها الاجتماعي كما سيعتبر تحليلا عبثيا ، لانها روايات هشة ، وتكاد تكون صحافية . فهذه الروايات هي شبه قوالب جاهزة يسكب فيها التصور الغربي للعربي . انها ليست نصوصا تجريبية ، كالرواية الحديثة التي توجه اللغة في عدد من الاتجاهات وتخضعها لولادات مستمرة ، بل هي نصوص